# الزهور تتفتح

جمال الغيطاني

.. بعد رحيل ماوتسي تونغ بشهور . مضى شاعر شاب جاء من الاقاليم الجنوبية الى رئيس تحرير جريدة « الكفاح » التي تصدر بعدة لغات تتحدث بها القوميات المتآخية في الصين ، فقدم قصيدة في ثناء الزعيم ماو . قرأها رئيس التحرير . ثم ابتسم . قال انه يحيي وفاء الشاعر لزعيمه الخالد ، كما ان القصيدة تنمّ عن موهبة لا شك فيها ، لكن ...

اصغى الشاعر بأدب عاقدا ذراعيه أمام صدره . قال رئيس التحرير ان المبالغة في التعبير عن الحزن تعطل الشعب عن أداء أعماله ، تعيّشه في مناخ قاتم ، لهذا يتمنى لو خفف الشاعر قليلا من حدة حزنه المشروع في القصيدة . لم يقل الشاعر لا ، لم يقل نعم ، ولم يره رئيس التحرير فيما بعد ، ولم تنشر القصيدة في اي جريدة أو مجلة أخرى ، منذ وقت ليس ببعيد كفّت الصحف عن نشر المراثي والقصائد التي تمجد ماو ، آخر ما نشر في هذا المجال دعوة الكاتب الكبير « تنغ بنغ » الى اشتراك الشعب في اقامة تمثال ضخم لماو فوق القاعدة الخالية بميدان « تيان آن مين » . اقترح أن يصل طول التمثال الى مائة وعشرين مترا بحيث يستطيع ركاب الطائرات الذين يعبرون سماء بكين أن يروا ذراع ماو تشير اليهم ، ودعا الى جماعية الخلق ، بحيث لا ينفرد فنان واحد بعمله ، اقترح جمع التبرعات حتى يشعر كل صيني انه شارك في اقامته . على ما يذكر القراء فان هذه المقالة اختتمت سلسلة من المراثي ، أما الاقتراح فبقي معلقا ، لا يطلع الى سماء أو ينزل الى ارض ، ولا يدري أحد كم من الوقت مرّ عندما سرت اشاعة شاحبة حول مخطوط يتداول سرا ، يتناول ماو بلهجة نقدية . وهذا ما لم يتصور انسان حدوثه في يوم ما . قال شبان شاركوا في الثورة الثقافية ان القوى المضادة بدأت التحرك ، ولا بد من اليقظة تجاه هذه الزنابير التي عششت طويلا ثم تخرج الآن لتطن وتفزع ، وتحدثت صحف حائط عن الافاعي التي باتت بياتا شتويا مديدا ثم تفحّ الآن ..

في أحد الاجتماعات الحزبية بشنغهاي وجه بعض الشباب سؤالا الى كادر حزبي حول صحة ما يقال حول هذه المخطوطة ، قال الكادر ان الامر تضخم اكثر مما يجب ، العصفور الهزيل يظنه البعض نسرا جارحا ، والفم الاهتم يرى قلة فيه أنيابا وقواطع . صمت لحظة ثم قال : هناك فعلا مخطوطة متداولة منذ فترة ، يقول كاتبها ان سحر الزعيم غيم فوق عينيه ، هذا التفرد القى على وعيه ظلا طوال السنين الماضية . بعد الرحيل الابدي زالت الغشاوة ، رأى ما يستحق النقد فدون مذكرات خاصة عنوانها : « استرداد الوعي » . سألت احدى الفتيات : من هذا الكاتب ؟

لم يجب الكادر فورا ، انما أجرى اتصالا عاد بعده ليقول انه « تنغ بنغ » ...

تدفق غضب المجتمعين . اصغوا الى ما لم يتوقع احدهم سماعه يوما .

قال الكادر ان الصين راسخة كالجبل ، وكتاب واحد لن يهز ربع سكان الكوكب ، لقد بلغوا سن الرشد الذي يسمح بظهور أي رأي ، وتفتح كل زهرة ، ورؤية كل أشعة الشمس . طلب منهم الرد على « تنغ بنغ » . خرج المجتمعون وقلق في بئر النفوس .

لوحظ في الايام التالية ان المقال الافتتاحي لجريدة « الكفاح » تضمن هجوما حادا على السياسة الزراعية . في اليوم التالي نشر مقال بتوقيع « مراقب » جاء فيه ان الجبل شامخ ، والرياح التي تهبّ لا تزيده الا رسوخا وما من شيء فوق الجبل الا الجبل نفسه . احيانا يتمرد . يطرد أعتى الصخور الى الوادي . قال ماو يوما : « لندع مائة زهرة تتفتح » ! وها هو الاوان الحقيقي لتفتح الازهار ...

ان العبارة الاخيرة قطعت الشك باليقين . ثمة غبار يثار حول الزعيم . غيوم رمادية قاتمة قادمة . الخطى تضطرب ، والايقاع يختل . بعد وفاة ماو بدأت « الكفاح » تنشر يوميا دائرة قطرها سبعة سنتيمترات بداخلها صورة ماو ، كتب حولها على هيئة غصن زيتون « مؤسس الصين الحديثة » . ظن الجميع ان الصورة ستستمر الى الابد ، لكنها اختفت ورحيل ماو لم يمض

عليه الا بضعة شهور . في نفس الوقت طبع « استرداد الوعي » بكميات كبيرة . هدد الشبان بحرق نسخه . رفض باعة الصحف توزيعه . قال أحدهم لمراسل الوكالة الفرنسية :

« لقد علمني ماو ، أدخل ابني الكلية العسكرية . وزاد حبات الارز التي يأكلها أطفالي ، كيف أهاجمه بتوزيع هذا الكتاب ؟ » .

قيل للشبان ان التيار الكبير يبتلع خيوط الماء النحيلة ، والبحر يخفي عذوبة الانهار . ردوا على تنغ بنغ . بعد أسابيع ظهر كتاب ألفه البعض ، أطلقوا عليه « الوعي الضائع » ، جاؤوا بفقرات عديدة مجد فيها ماو . لقد رسمت صور كاريكاتورية لبنغ ، صور يمشي عاريا في الاسواق ، رسم على هيئة حرباء ، لكن ثمة مرارة ترسبت في النفوس . هل تجيء لحظة من الزمان يضطر فيها البعض الى الدفاع عن ماو ؟ كما أبدى البعض أسفا على ما يصيب الانسان من تغير وتدهور . يبدو ان رد الفعل بلغ من الحدة درجة أسكتت الاصوات التي حاولت مد مظلة النقد الى شخص ماو . لكن الناس راحوا يرقبون بحذر ، ويقين خفي لديهم ان المسألة لم تنته عند هذا الحد . مع صمت الصحف بدأوا يرصدون عدة ظواهر كاختفاء صور ماو من مكاتب بعض الموظفين . اصبح طبيعيا أن يسأل شخص ما :

« هل رأيت صورة ماو عندما ذهبت لتقضي مصلحتك ؟ » .

علقت المرارة في الافواه ، هذا سؤال لم يتصور انسان نطقه يوما . قال أحد عمال المناجم انه برغم مضي شهور قليلة على رحيل ماو لكن عندما يذكر اسمه يخيل اليه انه عاش في حقبة بعيدة .. بعيدة جدا . بعض المعمرين قالوا ان الايام تأتي بالعجب ، والحقل لا يستمر أخضر أبدا . البحار يختلف عمقها من موضع الى آخر ، والعلم الحديث يقول ان القارات الخمس تتحرك من أماكنها ، كما ان الماء لم يوجد على حالة واحدة . هناك ماء البحر ، وماء النهر ، والماء الآسن ، والماء الراكد ، والماء الجاري ، والماء المتساقط مطرا ، وهكذا حال الزمن . لقد لاحظ الناس عدم اذاعة صور ماو في التليفزيون ، واختفاء صوته من الاذاعة . اصبح العثور على أسطوانة تحمل احدى خطبه كالعثور على زهرة الصقيع . كما قل المعروض من الكتاب الاحمر . وظهرت دعوى تقول باتاحة الفرصة للافكار الجديدة . كما لاحظ القرويون ان الحراسة على الاماكن التاريخية التي عاش فيها الزعيم قد خففت ثم اختفت . أصبح أي انسان يمكنه الدخول اليها . كما ان الوفود الاجنبية لم تعد تأتي لاختفاء الاماكن من برامج زياراتها . ومع ضياع بعض الادوات التي استخدمها ماو من هذه الاماكن ، قيل ان القرويين شكلوا حرسا ذاتيا منهم يبقى طوال الليالي الى جوار المساكن والمكاتب والاكواخ والمواقع والخنادق التي عاش بها ماو . ويدفعون اللصوص الذين بدأوا يظهرون أخيرا في الريف الصيني .

وأخفى الجميع أسى ، هل جاء الزمن الذي يضطرون فيه الى حماية بقايا ماو بأنفسهم ؟ هل حل الوقت الذي يستنشقون فيه رائحة صورة لماو ، أو كلمة بصوته ؟

مع حصاد محصول القمح ، بدأ زبد الموجة التالية للهجوم على ماو . في مقال افتتاحي نشر بجريدة « الكفاح » قيل ان الثورة الثقافية بدت ضرورية وقت حدوثها لتجديد شباب البلاد ، ولكن ثمة تجاوزات وقعت ، وستنشر تحقيقات يومية حول هذه التجاوزات ..

أدى المقال الى ظهور ملصقات جدارية تهاجم الاتجاهات الرجعية التي تستر محاولة تشويه الثورة ، غير ان مجمع البلديات أصدر أمرا بمنع الكتابة على الجدران . لا بد من المحافظة على نظافة الجدران ، حرصا على رونق المدينة في عيون الاجانب ..

في اليوم الثاني نشر أول تحقيقات « الكفاح » عن السجون الجماعية التي أقيمت للمعارضين في زمن الثورة الثقافية الاولى . نشرت صور لزنازين لا تتسع الا لعشرة أفراد وضع بها المئات لم يمكنهم النوم الا بالتناوب بحيث يقف البعض وينام الآخرون . نشرت صورة لعجوز صيني وتحتها تعليق « أصيب بالارق لعدم تمكنه من النوم » . وصورة لرجل آخر شمر عن ساقه وتحتها :

« سلخوا جلد ساقيه بعد أن رفض الكلام » .

وصورة رجل آخر قصير بدين :

« بصقوا في وجهه ، وصفعوه على قفاه » .

رجل آخر متوسط العمر :

« أحرقوا لحيته ، وشدوه من عضوه ... » .

لم تسكت جريدة « الشعب » الرسمية . هاجمت هذه الحملات الصحفية . قالت ان الرجعيين لو تمكنوا من البلاد لذبحوا ملايين الرؤوس . وللثورة الثقافية انجازات يجب أن تذكر .

غير ان الفلاحين في المناطق النائية والقريبة تأملوا ما يكتب . ثم همس بعضهم : هذه أدوار موزعة . وتساءل البعض : ألا يمكن منع « الكفاح » من نشر هذه التحقيقات ؟ وقال البعض : ان هذا ممكن بالتليفون . ورفع المسؤولون شعار أن الصين راسخة وقوية ولن تهزها الحملات أو الشائعات ، وذكرى ماو في القلوب . رد الشباب في التجمعات والمؤتمرات . طبعوا المنشورات . أبدى بعضهم ألما . ها هم يعيشون الزمن الاسود الذي تلوث فيه ذكرى ماو .. قال البعض : ليقدموا ما شاءوا ، لكن هناك أمرين لا يمكن أن يمس فيهما ماو ، هما المال والنساء .

في الايام التالية توقفت جريدة « الانبـــاء » وجريدة « الكفاح » . ونشرت جريـــدة « الشعب » صورة كبيرة لماو ـ لاول مرة منذ مدة ـ وتحتها تعليق « لنتخذ القدوه والمثل منه » . لكن الريبة لم تفـارق القلوب . وتساءل البعض : ترى ماذا يدبر هـذا الزمن الذي قدّر لنا أن نعيشه لماو ؟

بعد أربعة ايام أعلنت صحيفة اطليمية في اقليم الغرب عن مفاجأة مذهلة . نشرت صوره امراه تجاوزت الاربعين ، اجرت الصحيفة حديثا مطولا معها . فـاذ ان ماو تعرّف اليها بعد وصول الشيوعيين الى السلطة عام ١٩٤٩ . أحبها وأحبته ، ثم عاشرهـــا كالازواج . وأنجب منها ثلاثة أطفال . وقالت انه كان يهوى الفتيات الصغيرات ، ولديها رسائل بخطه تثبت كل شيء ، انها لا تطلب الا أمرا واحدا هو اثبات نسب هؤلاء الاطفـال الى والدهم العظيم . واعلنت انها ستسلم الى السلطات مليون دولار احتجزها ماو لنفسه من أموال الثورة أثناء المسيرة الكبرى ، واعطاها اياها لتنفق منها على الاولاد، ولكن ضميرها يؤنبها ...

تناقلت الوكالات الخبر . كتبت تعليقات عـــديدة أذيعت من كافة الاذاعات ، وأحرق أحد الشباب الذين ولدوا عام ١٩٤٩ نفسه احتجاجا على تلويث اسم ماو . وأكد رفاق ماو انه لم يعرف هذه المرأة ولم يمض الـى هذه البلدة . أما المليون دولار فأمر لا يستحق الرد . وشكك أحدهم في وجود المرأة نفسها .

وقال شاعر شاب قصيدة مطلعها :

انعي الى ذاك الزمان أهله ...

وفي الريف بدا الفلاحون وكأنهم لا يصغون الـى ضجيج المدن الصغيـــرة والكبيرة . رحـــلوا فرادى وجماعات لزيارة قبر ماو . وذات يـوم تعطلت سيارة تقلّ أحد الصحفيين الاجانب في منطقة تقع بأقصـى الجنوب الشاسع . وقف بعض الاطفال يرقبون بعيون ضيقة دهشة ، بدا غريبا بحجمه الكبير ، ولون بشرتـه الابيض . جاء والدهم العجوز . أشار المرافق الى ظمأ الضيف الاجنبي . دعاهم العجوز الـى دخول بيته . تلفت المرافق حوله . انه منهك ايضا . اضطر الضيف الى احناء رأسه . جلس فوق دكة من الطين تعلو فرنا باردا . أبدى رغبة في غسل وجهه . دعاه العجـــوز الى الداخل . قبل أن تقع عينا الضيف على الوعـــاء الفخاري القديم للماء ، حانت منه التفاتة الى حجـــرة داخلية . ان ثمة ضوءا ينبعث من شمعـة غليظة يلمس صورة متوسطة لماو . احدى صوره الملتقطة في الاربعينات او الثلاثينات . يبدو مبتسما ، مرتديا خوذة قتـال ، عيناه متطلعتان الى بعيد ، وكأنهما ترقبان زمنا آتيا ...

القاهرة


صدر حديثا :

# الجبل الصغير

مجموعة قصص بقلم

## الياس خوري

في خمس لوحات متكامـلة ، ترسم مجموعـة « الجبل الصغير » ، للكاتب اللبناني الياس خوري ، أفق رحلة لكتابة جديدة في القصة .

والحرب أو المـوت ، كممارسة ابداعية من أجـل تغيير العالم ، تنتقـل الى موت في الكتابـة نفسها وحرب في داخلها ، من أجـل تغيير رؤيا العالم الذي يسقط ويعيد خلق نفسه في الثورة .

القصة هي نسيج لفعل تاريخي يمتـد في علاقات الكتابة . لذلك تمتد القصـة في القصص التي تأتي بعدها أو قبلها ، لتشكل عالما متكاملا يحاوله « الجبل الصغير » في بحثه عن الكتابة الجديدة .

**منشورات دار الآداب**